الزعيم سليم علي سلام: رجل الإصلاح والوحدة العربية

بقلم مؤرخ بيروت المحروسة الأستاذ الدكتور: حسان حلاق
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر في جامعة بيروت العربية
hassanhallak06@hotmail.com

ولد سليم علي سلام في بيروت المحروسة في 27 تموز 1868، وكان والده علي عبد الجليل محمد سلام من الوجوه التجارية في المدينة. تصاهر سليم سلام مع عائلة بيروتية بارزة، فتزوج كلثوم ابنة عمر البربير(1)، وقد أنجب منها (12) ولدا»وهم السادة: علي، محيي الدين (من مواليد 1891 توفي عن عمر 22 سنة في أيار 1913)،محمد، مصباح، عمر، صائب، عبد الله، فؤاد، مالك، والسيدات: فاطمة،عنبرة، رشا.

ومنذ عام 1895 وبنتيجة لمركزه الاقتصادي والتجاري انتخب عضواً في غرفة التجارة، وفي عام 1900 عين رئيساً للبنك الزراعي. وفي عام 1908 أصبح عضواً في جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية، ثم أصبح عام 1909 رئيساً للجمعية، كما تولى عام 1908 رئاسة بلدية بيروت.

والجدير بالذكر أن سليم سلام بدأ منذ فترة مبكرة يحتل حيزاً هاماً في السياسة العثمانية والعربية، وكان منذ تلك الفترة مؤمناً بوحدة البلاد السورية ولو ضمن إطار الدولة العثمانية، لذا توجه 1912 إلى مصر، واجتمع هناك بالخديوي عباس حلمي ساعياً معه لوحدة البلاد السورية مع مصر، كما طلب سليم سلام من الخديوي السماح للضباط العثمانيين وللمجاهدين البيارتة واللبنانيين بالمرور في الأراضي المصرية إلى طرابلس الغرب لمساعدة الشعب الليبي، وقد تجاوب الخديوي مع مطالبه، انطلاقاً من وحدة مصير الشعب العربي.

رائد الحركة الإصلاحية في بيروت

وبالرغم من أن سليم سلام كان عثمانياً عربياً باتجاهاته السياسية غير أنه كان إصلاحياً مؤمناً بضرورة تطوير أوضاع الولايات العربية وبقية الولايات العثمانية، ولهذا قام مع أحمد مختار بيّهم وكامل الصلح وأحمد طبارة وجان تويني وبترو طراد وسواهم من الأعضاء المسلمين والمسيحيين بتأليف (جمعية بيروت الاصلاحية) للمطالبة بإصلاحات جذرية في ولاية بيروت. واعتبرت هذه الجمعية يومذاك أنها الشرارة الأولى لليقظة العربية، كما أنها الجمعية الأولى غير الطائفية في لبنان، إذ تجمع فيها المسلمون والمسحيون على السواء. وفي الأول من شباط 1913 أعلنت الجمعية برنامجها المؤلف من (14) بنداً، وأهم ما جاء فيه:

تحقيق الاستقلال الذاتي على أساس اللامركزية بحيث تبقى الولايات العربية جزءًا من الدولة العثمانية، والاعتراف باللغة العربية لغة رسمية كاللغة التركية.

---

(1) والداتها السيدة عنبرة الأغر ابنة مفتي بيروت وقاضيها ونقيب السادة الأشراف في القرن التاسع عشر الشيخ أحمد الأغر، وهي شقيقة العلامة الشيخ محمود البربر، كما كان أحد أجداد الأسرة مفتي بيروت الشيخ أحمد البربر.

وقد أشارت التقارير القنصلية لا سيما البريطانية والفرنسية إلى مدى تأثر الولايات العربية الأخرى ببرنامج وأهداف الجمعية الإصلاحية، وقد أكد القنصل البريطاني في القدس ونائبه في يافا مدى هذا التأثر.

وفي 17 آذار 1913 أرسل القنصل الفرنسي في بيروت (قوجة) (couget) تقريراً إلى وزارة الخارجية الفرنسية أوضح فيه أن أعضاء لجنة الإصلاح اجتمعوا بالوالي أبي بكر حازم بيك، وكان الأعضاء ممثلين بأبي علي سلام وقد قدموا له مطالب اللجنة ومما ذكره القنصل عن سليم سلام بأنه العضو الأكثر تأثيراً في الجمعية، وأن سليم سلام لم يكن طائفياً، بدليل أنه انتقد أمام الوالي واشتكى من عدم إعطاء المسيحين نصف المناصب في داخل مجلس ولاية بيروت. وأضاف القنصل الفرنسي أنه نظراً لتمسك الإصلاحيين بتنفيذ برنامجهم ومن أجل تقوية موقفهم فإن سليم سلام قرر تقديم استقالته من مجلس الولاية، كما أنه وأصدقاؤه لن يستلموا مركزهم إلا بعد تنفيذ مطالبهم.

ونظراً لأثر الجمعية الإصلاحية سواء في بيروت أو في بقية المناطق العربية، فقد قرر الوالي حازم بك بأمر من حكومته حل الجمعية الإصلاحية وتوقيف نشاطها وإغلاق ناديها الكائن في باب إدريس. وقد أخبر الوالي هذا القرار لسليم سلام باعتباره مدير الجمعية الإصلاحية والمسؤول عنها أمام الدولة فما كان من سلام إلا أن قال للوالي: «إن الجمعية الإصلاحية قد تشكلت بصورة مطابقة للقانون وهي قائمة على قاعدة أخذت من سياسة جمعية الاتحاد والترقي، وجمعية الحرية والائتلاف وغيرهما من الجمعيات السياسية التي تشكلت في الأستانة». ثم أرسلت الجمعية للوالي احتجاجاً على حل الجمعية وإقفال ناديها، كما أرسلت برقيات الاحتجاج إلى الصدر الأعظم، وأضربت مدينة بيروت المحروسة ومختلف الولايات العربية احتجاجاً على عمل الوالي.

كان من نتيجة أعمال الحركة الإصلاحية في بيروت ومحاربة الدولة العثمانية لأهدافها، أن تداعت الجمعيات والشخصيات العربية لعقد مؤتمر في باريس، وقد عقد فعلاً في 18 حزيران 1913. وكانت الجمعية الإصلاحية قد انتخبت وفداً يمثلها قوامه: سليم سلام، أحمد مختار بيهم، خليل زينية، الشيخ أحمد طبارة، د. أيوب ثابت وألبر سرسق.

وبمناسبة انعقاد المؤتمر أرسل القنصل الفرنسي في بيروت تقريراً مفصلاً عن شخصيات الوفد، ومما قاله عن سليم سلام أنه معروف باسم أبو علي وهو أحد البيروتيين الأصليين «قد من صخر قديم» (Vieille Roche) كلماته قاسية ولكنها مليئة بطعم ولون، كل شخصيته توحي بالقوة والعزيمة، وبالرغم من أن ثقافته بسيطة غير أن تأثيره لا ريب فيه سواء على أبناء طائفته أو حتى على سواهم، والمميزات الخاصة فيه أنه يتميز بالرجولة.

ولقد تبين في المؤتمر العربي الأول في باريس أن سليم سلام لم يكن يهدف إلى الانفصال عن الدولة العثمانية إنما اعتماد اللامركزية الإدارية. ورغم عثمانيته فقد اقترح في المؤتمر رفض كل منصب ما لم تتحقق المطالب الإصلاحية. ومن الملاحظ أن سليم سلام لم يحاول أن يستغل وجوده في باريس لإجراء اتصالات سرية أو علنية مع المسؤولين الفرنسيين، وقد انتقد انتقاداً شديداً كلّا من الدكتور أيوب ثابت وخليل زينية بعد أن علم أنهما كانا يتصلان سراً بوزير الخارجية الفرنسية « بيشون « ويطلبان منه ضرورة احتلال فرنسا للبلاد السورية. وكان سليم سلام وأحمد مختار بيهم قد أفهما الوزير الفرنسي بأن العرب لا يمكن أن ينفصلوا عن الدولة العثمانية أو القبول بفرنسا بديلاً عنها، وقد اتخذوا باريس مقراً لمؤتمرهم نظراً لصداقة فرنسا مع الدولة العثمانية وبسبب الديمقراطية التي يؤمن بها الفرنسيون. ونظراً لمواقف سليم سلام في باريس كتب وزير الخارجية الفرنسية إلى قناصله في بيروت ودمشق وبغداد، وحذرهم من سياسة سلام المؤيدة للعثمانيين رغم اتجاهاته الإصلاحية. ومما جاء في تقرير الوزير: «خذوا حذركم منه ولا تثقوا به». ولما انتهى مؤتمر باريس دعت الحكومة العثمانية لإجراء اتصالات مع أعضاء المؤتمر، فما كان من المؤتمرين إلا أن انتخبوا وفداً للذهاب إلى الأستانة برئاسة سليم سلام وعضوية أحمد مختار بيهم والشيخ أحمد طبارة الذين وصلوا إليها في 16 آب 1913، وهناك اجتمعوا بالسلطان محمد رشاد وبالصدر الأعظم، وولي العهد، ومما قاله سلام باسم الوفد لطلعت باشا الصدر الأعظم: «إننا خرجنا من البلاد ونحن عالمون بأننا غير راجعين يقيناً بأن الحكومة ستصدر الأوامر بعدم عودتنا لبلادنا العزيزة. وقد دخلنا اليوم عاصمة الملك ونحن موقنون أن علينا خطراً

عظيماً، ولكن الوطنية فوق كل المخاطر فليرسخ في أذهان رجال الإدارة أننا لن نرجع عن تعزيز بلادنا بأية واسطة كانت. كما وجه سليم سلام الكلام للسلطان محمد رشاد حينما قابله الوفد في 23 آب 1913، ومما قال سلام بالتركية: «إن العرب يا صاحب الجلالة أشد الناس وطنية وأكثرهم غيرة على هذه الدولة، فهم يطلبون صلاح أمرهم واستقامة شأنهم ومراعاة كرامتهم ويعملون لحفظ بلادهم تحت راية الهلال الشريفة».

هذا وقد لقي الوفد كل مجاملة وترحيب وتعاطف مع المطالب العربية، غير أن الحكومة العثمانية نكثت بوعودها ولم تنفذ الإرادة السلطانية.

ومن الأهمية بمكان القول إن مواقف سليم سلام الإصلاحية سواء في بيروت أو في باريس أو في استانبول كانت سبباً رئيسياً في إلقاء جمال باشا القبض عليه في إبان الحرب العالمية الأولى، وكاد أن يعدم مع بقية المعتقلين، لولا أن تأكد جمال باشا من خلال اطّلاعه على وثائق القنصلية الفرنسية في بيروت من أن سليم سلام وأحمد مختار بيهم كانا من المؤيدين للدولة العثمانية وأنهما لم يتآمرا عليها، وكل ما فعلاه أنهما كانا من رواد الإصلاح وتطور الولايات العربية وبينها ولاية بيروت. هذا ولا بد من الإشارة إلى أنه بسبب مواقف سليم سلام الإصلاحية انتخب منذ نيسان 1914 نائباً عن ولاية بيروت في مجلس المبعوثان العثماني.

رائد الوحدة السورية والعربية

بعد هزيمة الدولة العثمانية عام 1918 تشكلت الحكومة العربية في دمشق وأرسلت برقية إلى بيروت لإعلان الحكومة العربية فيها. وبالفعل فقد أعلنت ولادة هذه الحكومة برئاسة عمر الداعوق بينما كان سليم سلام المدير المسؤول لهذه الحكومة، غير أن فرنسا سرعان ما احتلت البلاد وقضت على كل تحرك استقلالي أو وحدوي، فاعتقلت سليم سلام عام 1919 لمدة أربعة أشهر وزجته في الطابق الأرضي من السراي الكبير في بيروت ومنعت عنه أية مقابلة. ولم يطلق سراحة إلا بعد مساع عديدة بذلها الأمير فيصل لدى رئيس الوزراء الفرنسي كليمنصو. ولما تبين لسليم سلام وللقوى الوحدوية في البلاد السورية بأن فرنسا وبريطانيا تريدان احتلال البلاد طبقاً لإتفاقية سايكس – بيكو تداعى الجميع لعقد المؤتمر السوري العام في دمشق بين عامي 1919 –1920 برئاسة الأمير فيصل، وقد انتخب سليم سلام ورضا الصلح وأحمد مختار بيهم ومحمد جميل بيهم ومحمود اللبابيدي وفريد كساب وجرجي حرفوش ومحمد الفاخوري وعارف الكنفاني وجان تويني مندوبين عن بيروت للمؤتمر، وكان من المرجح أن ينتخب سليم سلام رئيساً للمؤتمر السوري العام بعد وفاة رئيسه محمد فوزي باشا العظم، غير أن تأخر وفد بيروت في الوصول إلى دمشق دعا المؤتمرين إلى انتخاب هاشم الأتاسي على حد قول محمد جميل بيهم. هذا وقد بحث المؤتمر في مستقبل البلاد السورية وأكد على ضرورة بقائها وحدة مستقلة في إطار دولة عربية سورية موحدة. وفي عام 1920 وعندما واصل المؤتمر جلساته، عرض الأمير فيصل على سليم سلام تولى رئاسة الحكومة العربية الجديدة بعد حكومة رضا الركابي غير أنه اعتذر لأسباب عديدة منها ما يتعلق بالوضع القائم في لبنان وضرورة بقائه فيه. وفي ٧ آذار اتخذ المؤتمر السوري العام في دمشق قرارا تاريخيا شارك سليم سلام في اتخاذه وقد تضمن ضرورة وحدة البلاد السورية واستقلالها، ورفض إنشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين، غير أن فرنسا سرعان ما قامت بفرض سيطرتها على لبنان وسوريا، فقضت على الحكومة العربية في موقعة ميسلون، ثم أعلنت دولة لبنان الكبير في أول أيلول 1920.

وخلافاً لما هو متواتر، فقد أشارت الوثائق الفرنسية إلى أن سليم علي سلام وعمر بك الداعوق وأحمد مختار بيهم وبقية الزعامات الإسلامية حاولوا الاعتراف بدولة لبنان الكبير شرط إقامة العدل والمساواة وعدم الاستقواء بالسلطات الفرنسية، ولما لم تجد تلك الزعامات أذناً لبنانية وفرنسية صاغية، استمرت

في مطالبتها بالوحدة السورية.

والحقيقة أن سليم سلام والقوى الوحدوية استمرت في رفضها لصيغة لبنان الطائفي، ولم تعترف بإعلان غورو، وقد حدث أن ترأس سليم سلام وفدا وحدويا وتوجه إلى عاليه لمقابلة غورو، وقد قدم له مطالب المسلمين الوحدويين وبينها رفضهم الانضمام للبنان الكبير أو حتى القبول بتذكرة الهوية اللبنانية.

ونظرا لمواقف سليم سلام المعادية للفرنسيين سواء في مؤتمر باريس أم في عهد السيطرة الفرنسية على لبنان وسوريا، بدأت السلطات الفرنسية تحاربه باستمرار، وتداهم منزله في المصيطبة من فترة إلى أخرى، وفي ربيع عام 1922 داهمت السلطات منزله وبعثرت محتوياته وأوراقه، ثم سيق لسجن القلعة في رأس بيروت كما سيق معه صلاح بيهم وحسين العويني وحسن القاضي، ثم ما لبث أن نفي جميعهم إلى قرية «دوما» في البترون في شمال لبنان، وأبقوا هناك قيد الاعتقال من 29 نيسان إلى أيلول 1922.

وتبقى السنوات المميزة في تاريخ سليم سلام هي جهاده في سبيل الوحدة السورية والعربية الشاملة، فبالرغم من الاضطهاد والاعتقال استمر يطالب مع القوى الوحدوية اللبنانية والسورية بإنهاء الانتداب الفرنسي وإعطاء البلاد السورية استقلالها لتقرر مصيرها وتقيم وحدتها. ولهذا فقد ترأس في عهد الانتداب المؤتمرات الوحدوية، ففي 16 تشرين الثاني 1933 عقد في منزله في بيروت وتحت رئاسته مؤتمر الساحل الوحدوي، وكان بين المشاركين: عبد الحميد كرامي، عبد اللطيف البيسار، عمر بيهم، محمد جميل بيهم، شوقي الدندشي، علي ناصر الدين، يوسف يزبك، صلاح بيهم، الشيخ أحمد عارف الزين، وناقش المؤتمرون الوضع السياسي في لبنان وانتهوا إلى الاتفاق على وضع مذكرة رفعها سليم سلام باسمهم إلى المفوض السامي ومما جاء فيها « ... لقد سبق وقدمنا لأسلافكم في مناسبات عديدة عرائض واحتجاجات ... ورفعنا مرات عديدة لحكومة فرنسا الفخيمة وإلى جمعية الأمم مطالبنا، وبأننا نحرص جداً على أن نكون ضمن الوحدة السورية العامة التي لا حياة لبلادنا يدونها»، وقد ارسل هاشم الأتاسي رئيس الكتلة الوطنية رسالة تأييدا إلى سليم سلام وتأييدا لمقررات المؤتمر الوحدوية. والحقيقة أن سليم علي سلام استمر يعمل من أجل الوحدة السورية، ففي 10 آذار 1936 عقد مؤتمر الساحل والأقضية الأربعة في بيروت برئاسته أيضاً في منزله في المصيطبة وقد أكد المؤتمر ... ورغم الخلافات بين أعضائه على الاستمرار في المطالبة بالوحدة السورية رغم معارضة كاظم الصلح وعادل عسيران لهذه الوحدة. وقد تخوفت السلطات الفرنسية من استمرار المطالبة بالوحدة، لذا حذرت الصحف من نشر الأخبار عن الوحدة، كما وجهت إنذاراً إلى رئيس المؤتمر سليم سلام طلبت فيه التوقف عن نشر الدعوة للوحدة السورية وهددته باتخاذ التدابير القانونية بحقه. وكانت السلطات قد قامت بتعطيل صحيفة «البلاد» السورية لأنها نشرت أخباراً عن المؤتمر وعن الوحدة.

وقد استمر سليم سلام في عمله السياسي القومي والإسلامي مدافعاً عن الفكرة الوحدوية وعن المطالب الإسلامية وترأس «المجلس القومي الإسلامي» ودعا إلى عقد مؤتمر إسلامي في تشرين الأول 1936 انتهى إلى رفع مذكرة إلى المفوض السامي الكونت دي مارتل، طالب فيها بتحقيق المطالب الإسلامية والوطنية ومحتجا على المعاهدة الفرنسية – اللبنانية. ولما اتهم المفوض السامي المؤتمر الإسلامي بأنه مؤتمر طائفي ردت اللجنة التنفيذية للمؤتمر عليه بالقول: «إن اللجنة لا يسعها إلا أن تعرب عن أسفها حينما تجد في قلب هذه البلاد دولة لبنانية بحتة لا يبرر إنشاءها سوى الأسباب الطائفية».

والحقيقة أن سلام حرص على الاستمرار في نشاطه المناهض للممارسات الفرنسية إلى أن أقعده المرض في حزيران 1938، وما هي إلا أسابيع قليلة حتى وافته المنية في 26 حزيران 1938. وقد قال

رياض الصلح في حفل تأبينه أنه بغياب سليم سلام: «تنطوي اليوم من كتاب بيروت صفحة وينتهي من أبنائها جيل، تلك صفحة مطلع النهضة التي قرأنا فيها جميعاً دروسنا الأولى في العمل العام، وذلك هو الجيل الذي شق لنا ولمن بعدنا بداية الطريق».

رسم سليم علي سلام والحاج أمين الحسيني وعبدالحميد كرامي ومحمد سلام في صوفر عام ١٩٣٥.

رسم نادر وقيم يضم الملك فيصل وأعضاء المؤتمر السوري العام الذي عقد
في دمشق عام ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ للمطالبة بالوحدة السورية ويبدو في الرسم: سليم سلام
(مشاراً اليه بسهم) ورضا الصلح ورياض الصلح وهاشم الأتاسي
ورشيد رضا ومحمد جميل بيهم وعادل
زعيتر ومراد غلمية وعزت دروزة وسواهم.

رسم سليم علي سلام وأنجاله: علي، مصباح، صائب، محمد، فؤاد، عبدالله، عمر، مالك.

سليم علي سلام وابناه صالب ومحمد في وداع الملك فيصل في محطة فكتوريا
في لندن عام ١٩٢٥ وظهر معهم: صبيح نجيب وزير الدفاع العراقي
منير بارودي، تحسين قدري